مكتوبة

قالت جدتي التي ناهزت العقد السابع من عمرها وهي تحكي لنا بعد العشاء:

ـ تزوجت ثلاثة رجال، أكثر زوج عشت معه سنوات طويلة وأحببته كان العبد الطيب هاشم، كان يحبني كثيرًا ودودًا وعطوفًا، لم أرزق منه بولد أو بنت، حتى مرض ذات يوم ولفظ أنفاسه الأخيرة، ورحل عني وتركني وحيدة أعاني الوحدة والوحشة.

أما أغنى رجل تزوجته في حياتي، وأنا صغيرة لم أقض معه سوى بضعة أيام، وقصته غريبة عند احتلال الطليان لبلادنا نزحنا إلى السلوم، وكنت أسكن مع أبي وأمي وأخي الصغير فوق الطابية في خيمة، بالقرب من نجع معابده، هناك كانت الخيمة تتمايل وسط الريح العاتية، حتى مر ذات عصر يوم من أمام خيمتنا موكب لثلاثة فرسان قالوا إنه حاكم السلوم ومعه حرسه الخاص، كان أبي يومها يحصد في زرع أحد

المعابدة. توقف الفرسان الثلاثة أمام خيمتنا، خرجت إليهم أنا وأخي الصغير، حملت إليهم قدحًا من اللبن اقترب أحد الحراس من أخي الصغير وسأله:

ـ ابن من أنت؟

أجابه: ابن عبد الله المالكي.

كان الحاكم ينظر إليّ ويكاد أن يأكلني بنظراته الزائغة، وهم يمدون له بقدح اللبن الذي تجرع منه عدة جرعات، ثم مده للحارس، ثم مده للحارس الآخر ثم أعادوا لأخي القدح فارغًا، ثم أقفلوا عائدين.

وبعد ثلاثة أيام أقبل أحد الحراس، واقترب من خيمتنا وتوقف عندها، خرج له أبي بادره إن الحاكم يطلب منه المثول بين يديه، ارتدى أبي ملابسه وذهب معه، وتركنا في ذعر وفزع ودهشة واستغراب، ماذا فعل أبي حتى يستدعيه الحاكم؟ لكن غيبة أبي لم تطل، حضر إلينا مبتهجًا مغتبطًا، وعندما سألته أمي أجابها:

ـ حاكم السلوم حسين باشا يبي يناسبنا.

تساءلت أمي:

ـ في من؟

أجابها:

ـ ومن عندنا غير مكتوبة.

تضايقت يومها وشعرت بالحزن، ورفضت بشدة الزواج من الحاكم الذي يكبرني بعشرات السنين، لكن أبي وأعمامي أرغموني على الزواج منه، خاصةً وهو صاحب منصب كبير وجاه ولا يستطيعون رفض طلبه.

كنت يومها صغيرة لم أتم العقد الثاني من عمري، أرسل الحاكم الخراف والتموين لأهلي مع بطانته وحاشيته أقيم لي عرس بهيج أمام قصره الفخم الذي يطل على شاطئ السلوم، ودعت خيمتي الصامدة في وجه الريح، والتي كنت أشاهد القمر من فتحاتها، دخلت القصر مذهولة قصر فخم به العديد من الغرف والثريات الفخمة، نوافذ القصر تغطيها

ستائر حريرية، تفتح بالكهرباء، خدم وحشم بالقصر يأتون لي بكل ما لذ وطاب من أصناف الأكل والفواكه المختلفة، التي تأتي بالطائرة من الإسكندرية، أما غرفة نومي فهي فخمة لم أرَ مثلها في حياتي، وستائرها حريرية، أشعر بالخوف والفزع عند فتحها أو إغلاقها من قبل الخادمة، ودولاب ملابسي به أرواب عديدة وفساتين جميلة، لكن كل ذلك لم يبهرني كثيرًا فأنا فتاة بدوية أعشق البادية والصحراء والرعي بالماعز، ومطاردة الجرابيع وشوي القعمول، أما هذا القصر بالنسبة إلي فهو سجن مرعب، مع المساء كان زوجي يداعبني ويلاعبني، كان دائمًا يسألني:

ـ ما هي أخبارك يا صغيرتي، ماذا تريدين؟

بالرغم من ذلك كنت أكرهه وأكره العيش معه، ذات يوم جاءني وأخذ يملي علي تعليماته:

ـ لا تتحدثي مع الخدم، ولا تختلطي بهم، ولا تأكلي معهم فأنت سيدة القصر..

ولكن كل ذلك أنساه بعد ذهابه إلى عمله خارج القصر، وأضرب بتعليماته عرض الحائط، أخالط الخدم، وأذهب معهم إلى الشاطئ، وأسبح معهم في البحر، وعندما يصل القصر كانوا يخبرونه بكل ما فعلته، وعند زيارة أمي لي في القصر يقابلها الحاكم قائلًا في غضب:

- ابنتك هذه لا تصلح زوجة لي يا مكاسب.

- تبادره أمي ببساطة:

- إن كانت لا تصلح طلقها يا سيدي.

تكرر الأمر عدة مرات وبعد أن تعب معي أرسلني إلى أهلي عدت إلى خيمتنا، وأنا أكاد أطير من الفرح كعصفور قد تحرر من القفص، لكن أبي توجس خيفة وأصبح منزعجًا بعد طلاقي من حاكم السلوم، وبدأ عليه القلق وقرر بيع الخيمة التي كنا نقيم فيها، وشد الرحال والعودة إلى وطننا وضعنا متاعنا على الحمار حملت أمي طفلتها على ظهرها وأبي يمسك بالحمار في المقدمة نصعد حجاج السلوم نحو الغرب مشيًا على الأقدام.

وأخي يسير خلف الحمار وهو يسمعنا أنغامًا شجية بمزماره، وبعد ساعات كنا نجتاز الاسلاك الشائكة وقد لاحت لنا من بعيد ثمة بيوت متناثرة، ورائحة الوطن، ها قد عدنا إليك يا وطني.